طنطا
عاصمة محافظة الغربية
(زهرة وادي النيل وعروس الدلتا)

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي ■

طنطا عاصمة محافظة الغربية بمصر، تقع في قلب دلتا النيل على بعد 92 كم شمال القاهرة و120 كم جنوب الإسكندرية، ملتقى هام للطرق الحديدية والبرية؛ حيث تربطها بجميع أنحاء الجمهورية شبكة مواصلات جيدة، كما أنها تعدّ ثالث مدن الدلتا من حيث المساحة بعد المحلة الكبرى والمنصورة.

طنطا في كتابات المؤرخين

وصفها المؤرخ الإغريقي القديم (هيرودوت) بأنها: «شاسعة وتستحق الإعجاب»، أما المؤرخ المصري القديم (مانيتون) ـ أحد رؤساء الكهنة، الذي كلفه بطليموس الثاني أن يكتب تاريخاً لمصر،

■ باحث في التراث العربي والإسلامي.

mudon and thakafat (35).indd 403 5/3/12 4:07 PM

وقد قام فعلاً بكتابة هذا التاريخ اعتماداً على الوثائق المصرية القديمة الموجـودة في المعابد المختلفـة ـ فقد ذكر ـ فـي تاريخه الذي ضاع، واحتفـظ المؤرخون المتأخـرون من أمثـال (يوسـفوس) و(أفريكانوس) بمقتطفات منه ـ أن المدينة العتيقة كانت عاصمة للإقليم الثاني عشـر مـن أقاليم الدلتا، إلى أن غدت عاصمة الدولة بأسـرها أيام الأسـرة الثلاثين من عـام 378 حتى عام 341 قبل الميـلاد، وفيها حكم مصر ثلاثة من الملوك الفراعنة، هم على التوالي.. نختنبو الأول، ثم تيوس، ثم نختنبو الثاني.

أما العالم الأثري الفرنسي ج.ف. شامبليون «مكتشف حجر رشيد» فقال فـي وصفها: «لم نكد نقتـرب من تلك الأسـوار العالية العتيقة ذات البوابة التي انهارت حديثاً، لم أسـتطع قياس مدى التأثير الذي شـعرت به بعد أن تجاوزنا تلـك البوابة، ووجدنا تحـت ناظرينا كتلاً هائلة بارتفاع 80 قدماً، إنها صخور متشابة تهشمت بفعل الصواعق أو الهزات الأرضية».

وحضارة هـذه المدينة جمعت بيـن أطرافها ثـروة أثرية نادرة من التاريخ المصري القديم في «صا الحجر» مركز بسيون (ساو) أو سابي أو سـاب كما عرفت أيضاً فـي المصرية القديمة باسـم (برنيت)؛ أي: بيت الآلهة، واشـتهرت لدى الإغريق باسم (سايس)، وفي القبطية باسم (سـاى)، وعرفت باسـم (صا) عند دخـول العرب، وأُضيفـت لها كلمة الحجـر حديثاً لكثـرة أطلالها الحجريـة وهي ضمن أمـلاك المجلس الأعلى للآثـار و«بهبيت الحجارة» مركز سـمنود عرفـت في النصوص المصريـة القديمة «بر ـ حبيت»؛ أي: بيت الأعيـاد، وأضيف إليها كلمة الحجارة؛ لتراكم أحجار المعبد بعضها فوق بعض نتيجة انهياره، وكانت

mudon and thakafat (35).indd 404 5/3/12 4:07 PM

جزءًا من الإقليم الثاني عشر من أقاليم الدلتا، وبه معبد للآلهة «إيزيس» معبودة الإقليم، والذي يعود للأسرة 30، ولم يتبق من مدينة بهبيت الحجارة ـ التي كانت رمزاً للقوة ومهد للحضارة ـ إلّا الأطلال، وبعض سلالم ضخمة من عدة درجات، وكتل حجرية تحمل أسماء الملك (نكتابو) الثاني، وكل من الملكين بطليموس الثاني وبطليموس الثالث، وقد استغرب علماء الحملة الفرنسية ـ الذين وصفوا بهبيت الحجارة في كتاب وصف مصر ـ من وجود بعض المعابد المبنية بأكملها بالمواد المستخرجة من محاجر أسوان في بهبيت الحجارة، وأرجعوا ذلك إلى فكر وذكاء قدماء المصريين في العظمة والخلود التي كانت رائدهم دائما في تصميم تنفيذ مبانيهم الكبيرة ومنشآتهم العظيمة، فقد كانوا يعرفون أن الحجر الرملي أو الجيري لا يعمران طويلاً إذا ما تعرضوا للهواء أو لمياه البحر لذلك استخدموا الجرانيت الذي جلبوه من أسوان في معابدهم ومبانيهم الهامة في الدلتا، كما تضم أثراً كنسياً يرجع تاريخه إلى القرون الأولى الميلادية ـ كنيسة السيدة العذراء بالصّاغة، وتمتاز بروعة تصميمها، كما يوجد فيها مقام ومسجد العارف بالله السيد أحمد البدوي، وقد بني في عهد السلطان قايتباي، ومكتبة المخطوطات التي ترجع إلى القرن الثامن الهجري.

وهذا معناه أن هذه المنطقة قد حظيت بعدد من الآثار المصرية القديمة، وعدد آخر من الآثار المسيحية، فضلاً عما حظيت به من آثار إسلامية، جعلت منها مركزاً إسلامياً من أهم المراكز في عالمنا المعاصر.

ومرجع ذلك إلى أن الوجه البحري بوجه عام، ومحافظة الغربية بوجه خاص، وعاصمتها طنطا بوجه أخص ـ قد حظيت جميعاً بشهرة

mudon and thakafat (35).indd 405 5/3/12 4:07 PM

تاريخيـــة عظيمـــة من قديم الزمان؛ وذلك بســـبب اتســـاع الـــوادي في الشمال، مما سهل للمصري القديم ســـهولة التنقل، حيث الماء الجاري والمراعي الوفيرة.

وقد أكد العالـــم الأثري (فوكارت) أن الدلتا كانـــت مليئة بالأماكن الأثرية والتـــلال؛ ولكنها اختفت بمرور الزمن، لوجود قصاص الســـباخ في الماضي، مما أضاع فرصاً كثيرة علـــى علماء التاريخ والآثار، فضلاً عن تســـرب ما كان يُعثر عليه من آثار للخـــارج، وصعوبة القيام بحفائر منظمة بالوجه البحري لقرب مســـتوى المياه الجوفية من سطح الأرض، مما أصاب الآثار الموجودة التي لا تحتمل الماء والرطوبة بأبلغ الأضرار.

وقد تعرض لذكر طنطا عدد من كبار المؤرخين العرب والمصريين، فقال ابن حوقـــل ـ المؤرخ المعروف عن طنطا فـــي عصر المماليك ـ : «إن طنطا كانـــت لطيفة، بها جوامع وأســـواق، وملحق بهـــا جملة قرى، وهي محل إقامة الحاكم الذي كان ســـنجقاً من أمـــراء المماليك تحت إمرته جنود مـــن الخيالة والمشـــاة، يقام فيها وقت الاعتـــدال الربيعي والانقلاب الصيفي ســـوق جامع يعرف بمولد السيد البدوي، يجتمع فيه خلق كثيرون، لا يُحصـــي عددهم إلا الله من جميع بـــلاد القطر، وليس اجتماعهم لمحض التجارة؛ بل له سبب ديني بسبب وجود الجامع البدوي الشهير الفاخر ذي القبة العظيمة».

أما الجبرتي في كتابة التاريخي النفيس (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) فلم يذكـــر (طندتا) ـ كما تســـمى في ذلك الوقـــت ـ في أي من الأجزاء الأربعة لهذا الكتاب، إلا مقروناً بحدث يتعلق بمقام الســـيد البـــدوي، خاصة ما اتصل منها بمبالغ النـــذور الهائلة التي كان يحصل عليهـــا، والتي كانت محل نزاع دائم بين الســـدنة عليـــه، أو بينهم وبين

mudon and thakafat (35).indd 406 5/3/12 4:07 PM

السلطة، عثمانية أو مملوكية أو حتى فرنسية وقت وجود الحملة الفرنسية في مصر(1798م/1801م).

غير أنه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين تغيّرت هوية المدينة، وأصبح وجود المقام يمثل جانباً من حياتها الاقتصادية والاجتماعية، وليس جل حياتها كما كان الحال من قبل.

كما ذكرها باستفاضة علي مبارك في الخطط التوفيقية، فكان مما قال:

«لما جلس الخديوي إسماعيل على عرش مصر شمل طنطا بعنايته، وأمر بإجراء التنظيمات فيها بتوسيعه الحارات، وفتح الشوارع المستقيمة، ورتّب لها لأول مرة مهندس تنظيم وحكيم صحة، وفتحت بها عدة شوارع ذات اتساع واعتدال، وقد صدر الإذن من طرف الخديوي إسماعيل لديوان الأوقاف بتقسيم الأرض الفضاء الواقعة في غربيها بجوار ديوان المديرية الجديد على الراغبين، وتحكيره، وجرت العمائر فيها بالفعل على طبق الأوامر الخديوية، فبُنيت هناك أبنية فاخرة وعمائر جليلة، وكان تقسيم ذلك ورسمه وبيان كيفية الإجراء على يدنا وبمعرفتنا فقد كنا ناظراً على الأوقاف. وقد بلغ محيط المدينة نحو مائة وثمانين فداناً، واحتوت على عدة قيساريات، وفي وسطها وجميع جهاتها حوانيت وخانات وفنادق كلها مشحونة بالمتاجر والبضائع الداخلية والخارجية والحرف التي لا تقف عند حد، وعلى عدة وابورات وبساتين وأسواق وأضرحة للكثير من الأولياء، وقصور مشيدة بالمونة والبياض ذات شبابيك من الحديد والزجاج والخشب المخروط، وأعظم مساجدها مسجد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، فلا يفوقه في التنظيم وحسن الوضع والمعمارية

mudon and thakafat (35).indd 407 5/3/12 4:07 PM

أي مسـجد، وهو في وسـط البلد تقريباً يحيط به أربعة شـوارع، وفي ضلعه القبلي مقام قطب الأقطاب سـيدي أحمـد البدوي، وعلى ضريحه مقصورة من النحاس الأصفر في أحسن شكل وقبة عالية مثل قبة الإمام الشـافعي، وبه نحو سـتين عموداً من الرخام الأبيض، وله في تدريس العلوم به شـبه بالجامع الأزهر، ففيه نحو ألفي طالب غير المدرّسين، ولهم شيخ كشيخ الأزهر، وللمسجد أربعة منارات في زواياه الأربع، وله سـبعة أبواب، وله سـاقية معينة بعُد ماؤها عن سـطح الأرض في زمن الصيف عشـرون متراً، وتحـت المرافق مجرى بمواسـير من الرصاص لصرف الفضـلات إلى ترعة جعفرية القاصد تمتـد نحو أربعمائة متر، ومسـطح الجامع بمرافقه أكثر من فدان ونصف، وهو جامع عتيق، وقد حصل هدمه والشروع في تجديده من مدة المرحوم عباس باشا إلى أن تمّ على أحسـن نظام في عهد الخديوي إسماعيل باشا. وكان رسمه على هذا الوضع الجليل بنظر وملاحظة صاحب العلوم والمعارف والمحاسن واللطائف البالغ في فنون الرياضة منتهاها سعادة المرحوم بهجت باشا عامله الله بالإحسان وتغمده بالرحمة والرضوان.

ومن أعظم قصورها كشـك الخديوي، وقصر لإسماعيل باشا صديق ناظـر المالية سـابقاً، وقصـر المرحوم حسـين صبري باشـا، وقصر المرحوم فاضل باشـا، وقصـر هلال بك، وقصر محمـد بك الصيرفي، وعمارة العشري، ومنزل الأسـتاذ الإمام القصبي، ومنزل الست مباركة، ومنزل الشيخ مصطفى الخادم، ومن أشـهر بيوتها وأقدمها بيت الخادم وهم ينسبون منذ أجيال لخدمة مقام سيدي أحمد البدوي».

أما بطرس البسـتاني مؤلف دائرة المعارف الإسلامية 1899م فيقول عنها: «طنطا مدينة قديمـة في مصر، هي قاعدة مديرية الغربية بالوجه

mudon and thakafat (35).indd 408 5/3/12 4:07 PM

البحري على مسافة 90 كيلو متراً عن القاهرة، ويبلغ عدد أهاليها (بإحصاء سنة 1897م) 57389 نفساً، فهي ـ بعدد سكانها واتساع تجارتها ـ المدينة الثالثة في القطر المصري، لا يفوقها إلا القاهرة والإسكندرية، وقد كانت فيما تقدم ضيقة الشوارع قليلة الانتظام كمعظم مدن القطر، فكانت رطبة كثيرة الأمراض، فأصلح الخديوي الأسبق إسماعيل باشا كثيراً من شوارعها ووسعها، وتحسنت حالها، وازداد عدد سكانها، وراجت تجارتها، وقد نفذت فيها في عهد الخديوي عباس الثاني إصلاحات أخرى تؤذن بازدياد تقدمها، وفيها الآن كثير من المباني الحسنة، وعدة مدارس ومساجد وكنائس ووكالات لقناصل الدول، وأقدم مساجدها المسجد المعروف بجامع البوصة، وفيه مدفن الشيخ محمد البهي، وأشهرها مسجد السيد البدوي وفي طنطا كثير من الآلات البخارية للري والحلاجة والطحن».

من أعظم قصور طنطا: كشك الخديوي، وقصر إسماعيل باشا، وقصر حسين صبري، وقصر محمد بك الصيرفي، ومن أشهر بيوتها وأقدمها بيت الخادم...

طنطا في التاريخ

منذ آلاف السنين أطلق الفراعنة عليها اسم (تناسو)، وكانت إحدى بلاد المقاطعة الخامسة من مقاطعات الوجه البحري في مصر الفرعونية.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد أسماها الإغريق (تانيتاد)، ولمّا آلت مصر إلى الرومان عرفت باسم (طنتثنا)، وفي العصر البيزنطي قبل الفتح الإسلامي أُطلق عليها (طو)، وكان اسمها القبطي القديم (طنيطاد).

mudon and thakafat (35).indd 409 5/3/12 4:07 PM

وكما تركت الحضارة المصرية القديمة بصماتها واضحة على جبين طنطا، تركت المسيحية أيضاً آثاراً ليست تمحى، ففي حي الصاغة بطنطا توجد كنيسة الأقباط الكبرى، والتي تعدّ تحفة فنية، وكذلك كنيسة لويس، وكنيسة ماري جرجس بكفرة أبي النجا بطنطا، وكنيسة الروم الكاثوليك الأثرية بشارع القنطرة، وكنيسة القديس بطرس للأقباط الكاثوليك بشارع البحر.

لما فتح المسلمون مصر عام (20هـ ـ 641م) حُرفَ الاسم إلى (طنتدا)، واضمحل شأنها، وأصبحت ضاحية من ضواحي (سبرباي) عبارة عن قرية تضم بضعة منازل وأكواخ متناثرة بنيت من الحجارة والطوب الأخضر (اللبن) وبها جامع وحمام وسوق وأسقفية.

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الموافق النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي أحدث الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (427هـ ـ 487هـ) تغييراً كلياً في حدود الأقسام الإدارية بالقطر المصري، فقد كان الوجه البحري ينقسم إلى إقليمين كبيرين: إقليم مصر، وإقليم أوجيستا، وكل من هذين الإقليمين كان مقسماً إلى دوقيتين: دوقية قسم أول ودوقية قسم ثان، ثم تنقسم كل دوقية (ولاية) إلى عدد من الكور أو المراكز الإدارية. فألغى المستنصر الأقاليم كما ألغى الست وأربعين كورة في الوجه البحري وأحل محل التقسيم السابق تقسيماً آخر جعل الوجه البحري 22 إقليماً، منها إقليم (الطندتاوية) نسبة إلى (طندتا) التي أطلق عليها الفاطميون اسم (طندتا)، واتخذوها قاعدة لإقليم الطندتاوية الجديد، وعينوا لها عاملاً أو والياً كان يتولى أمر الخراج والشرطة والصلاة، ومن ذلك الحين بدأ الاهتمام بهذه القرية.

mudon and thakafat (35).indd 410 5/3/12 4:07 PM

وفي العصر الأيوبي ـ وخاصة في ظل حكم صلاح الدين الأيوبي ـ ازداد الاهتمام بقرية طندتا واتسع عمرانها، وأصبحت قرية كبيرة زمامها حوالي المائة فدان.

وفي هذا العصر (الأيوبي) وفي عهد الملك العادل أبي بكر الثاني ابن الملك الكامل الأيوبي استقر بطنطا ـ السيد أحمد البدوي ـ (القطب الصوفي المعروف بشيخ العرب) سنة (637هـ ـ 1240م) قادماً من مدينة فاس بمراكش (المغرب)، والتي وُلد بها عام 596هـ من أسرة عربية تعود بالنسب إلى الإمام علي رضي الله عنه كما يقال. ومنذ بدأ شأن هذه القرية يعظم حتى صارت مدينة كبيرة ذات شأن.

وقد ترك البدوي عدداً من المؤلفات التي أشار إليها واضعو دائرة المعارف الإسلامية، هي:

- **صلوات:** وهي مجموعة من الأدعية والصلوات، وضعت للأتباع والمريدين، وقد شرحها ونشرها عبد الرحمن بن مصطفى عيدروس، أحد مشاهير الصوفية، في القرن الثاني عشر في رسالة جديدة بعنوان «فتح الرحمن».
- **وصايا:** وهي مجموعة من الوصايا والعظات في شكل جمل وعبارات عامة، ليس لها طابع شخصي؛ ولكنها تتفق مع آراء البدوي، وقد وجهها إلى تلميذه عبد العال؛ لتكون دستوراً له ولأتباعه من بعده ومريديه.
- **الأخبار في حل ألفاظ غاية الاختصار:** وهو مخطوط كتبه شخص يدعى إبراهيم سنة 639هـ، بعد نزول البدوي بطنطا بسنتين، ويرجح أن يكون إبراهيم هذا أحد المريدين الذين كانوا يكتبون للبدوي رسائله ومؤلفاته، ويتضمن شرحاً طويلاً في الفِقه والمعاملات والأحوال الشخصية، على مذهب الإمام الشافعي.

mudon and thakafat (35).indd 411 5/3/12 4:07 PM

وفي القرن الثامن الهجري تغيّر اسم طندتا إلى (طنت)، ثم أعيد تقسيم الدلتا في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين عام (777هـ-1375م) إلى أحد عشر إقليماً جديدًا سُمي (الغربية) لأول مرة، عاصمته محلة كبير (المحلة الكبرى)، ويشمل معظم أراضي وسط الدلتا، وازدهرت في ذلك الوقت قرى صغيرة تقع في منتصف المسافة بين المحلة الكبرى العاصمة وطنت، مثل شير (شبشير) وشيت (دمشيت). وأطلق على طنت (طنتا)، وأصبحت تابعة لإقليم الغربية، وعُين لها محتسب كان يشرف على الآداب العامة، والدين، والرفق بالدواب، والتعليم، والمكاييل والموازين، وفض المشاكل بين المتخاصمين، والعمل على توفير سبل المعيشة للمواطنين، ورقابتهم في معاملاتهم وعباداتهم.

وبسبب نقل عاصمة إقليم الغربية إلى المحلة الكبرى اضمحل شأن (طنتا) خلال العهد العثماني.

وفي أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام (1223هـ- 1798م) تم تعديل الحدود الإدارية لإقليم الغربية مرة أخرى؛ إذ أصبح عدد الأقاليم ثمانية فقط بعد إلغاء بعضها وضمها إلى أقاليم أخرى، وأضيف إلى إقليم الغربية مساحات أخرى من الأقاليم المجاورة. وكانت طنتا من نصيب المنوفية وأطلق عليها اسم (طنطه).

ولمّا تولى محمد علي أمر مصر قام في عام (1128هـ-1813م) بإجراء تعديل آخر، فأصبح عدد الأقاليم بالوجه البحري ستة منها اثنان في وسط الدلتا. الأول إقليم الغربية ويشمل أكثر من ثلثي أراضي الدلتا، والثاني إقليم المنوفية ويشمل على المساحة الباقية، فعادت طنطه لإقليم الغربية وجعلها محمد على عاصمة لأحد أقسام الغربية، واشتهرت باسمها الحالي (طنطا).

mudon and thakafat (35).indd 412 5/3/12 4:07 PM

وفي عام 1833م عين عباس باشا طوسون حفيد محمد على أول مديرًا للغربية؛ حيث سمي الإقليم لأول مرة باسم مديرية، وكانت هذه التسمية من مبتكرات محمد علي.

وفي عام (1252هـ-1836م) اتخذ عباس طوسون طنطا عاصمة للمديرية، ومنذ هذا التاريخ ازدهرت المدينة ازدهاراً كبيراً وأخذت تحتل مكانتها بسرعة كعاصمة لأكبر مديريات القطر المصري، وفي عام (1854م) تولى حكم مصر محمد سعيد باشا الذي ألغى مديرية المنوفية وضمها للغربية وشكل منهما مديرية واحدة أطلق عليها مديرية روضة البحرين، وكانت تضم وسط الدلتا كله، ويشمل الأراضي المنحصرة بين فرعي النيل الفاتيميتي (دمياط) والكاوبي (رشيد) وساحل البحر الأبيض المتوسط، وبلغت مساحتها حوالي مليون فدان ونصف مليون فدان. وظلت طنطا عاصمة للمديرية الكبيرة حتى عام 1960م، إذ صدر قانون نظام الإدارة المحلية، وألغيت المديريات بقيام المحافظات، ولكن طنطا ظلت عاصمة للغربية حتى اليوم. وازدادت أهميتها بعد مرور أول خط حديدي بها ليصل القاهرة بالإسكندرية عام (1854م)، والذي زاد نشاطه بعد بناء كوبري كفر الزيات عام (1859م) مما اختزل مدة الرحلة بين العاصمة (القاهرة) والثغر (الإسكندرية) من 42 ساعة إلى سبع ساعات، ومُدّت الأسلاك البرقية والتليفونية في عهد الخديوي محمد توفيق باشا عام 1888م.

المسجد الأحمدي جامع وجامعة

بدأ الجامع الأحمدي في شكل خلوة بناها أول أتباع السيد البدوي (عبد العال)، وذلك بجانب القبر الذي بناه لأستاذه، وهو في المكان نفسه الذي عاش فيه أحمد البدوي ومات (دار ابن شميط)، ثم تحولت

mudon and thakafat (35).indd 413 5/3/12 4:07 PM

هذه الخلوة إلى زاويــة للأحمديه بناها عبد العال بإشــرافه، وبنى لها المنارات والقباب، واستمر الوضع على تلك الحال مدة قرنين وربع قرن من الزمان حتى كان عصر السلطان (قايتباي) كما يشير إلى ذلك ابن إياس في مؤلفه «بدائع الزهور» عندما يذكــر حوادث عام 901هـ، وما أنشأه الأشــرف قايتباي من البنيان، وجدد مقام الســيد أحمد البدوي وبناه بناءً حافلاً ووسعه.

ولمّــا ولي أمر مصر علي بــك الكبيــر (1182 ـ 1186هـ) وقبل أن يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية، ومحاولة لاكتساب المصريين ضد الســلطة، والاعتماد على رجال الدين بما لهم من نفوذ في قلوب العامة كان اهتمامه بزاوية الأحمدي وتحويلها إلى مسجد فخم له ثلاث قباب، أكبرها للبدوي، والقبة الغربية لعبد العال، والشــرقية للشــيخ مجاهد، شيخ المسجد في عهد على بك الكبير، ووضع على الضريح مقصورة من النحاس نقشــت عليها سلسلة نســبه، وأرّخت في نهايتها سنة 1186هـ، إشارة إلى عهد علي بك الكبير، الذي أوقف للمسجد أيضاً أوقافاً كثيرة تعدّ من أهم الموارد المالية للمسجد، كما بنى سبيلاً خارج المسجد.

وفي عهد الخديوي عباس الأول عني بالمسجد الأحمدي، وصُنع له منبر وضعت فيه أعمدة مــن الرخام يبلغ عددها 58 عموداً، وقد صَنَعَ هذا المنبر الدقيق الصنع، الرائع النقش، أحدُ صناع مصر، كما قام أحد الصناع فــي عهد الخديوي عباس حلمي الثانــي 1320هـ بإعداد المحراب بالرســوم البديعة، المرصعة بالصدف الملون مع التناســق والتجانس مما جعلها رائعة المنظر، وذلك أثناء تحسين وتقوية بنيان المســجد، وقد تمّ إعادة بنــاء الجامع في عهد الخديوي إســماعيل، ونظراً لأهمية الجامع الأحمــدي، كان الاهتمام به من نواحي الترميم

mudon and thakafat (35).indd 414 5/3/12 4:07 PM

والطلاء، ولكن نتيجة للتطور الكبير في المنطقة كقلب للدلتا اقتصادياً واجتماعياً وعلمياً، واهتمام المحافظة بالجامع الأحمدي، كانت الموافقة على مشروع توسيعه وتجديده لكي يتفق مع التطور الجاري في هذه المنطقة الهامة من قلب مصر، ففي عام 1979م تمّ توسعة الجامع وإعادة تشيده بالصورة الحالية، وفي عام 2008م بدأت أعمال ترميم وتقوية المسجد بناء على الأساليب العلمية الحديثة مع الحفاظ على روح المسجد التاريخية، وما زال العمل يجري به إلى الآن (منتصف يونيو 2009م).

كانت ولا زالت شهرة طنطا في تحفيظ القرآن الكريم تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين

أما المسجد الأحمدي كجامعة إسلامية فإن تاريخ وجود التعليم فيه يرجع إلى أوائل القرن التاسع الهجري؛ حيث وجد في بعض وقفيات المسجد المؤرخة سنة 814هـ ما يؤخذ منه أن هذا المسجد كان به بعض طلبة العلم، وأخذ المسجد الأحمدي يتحول إلى مدرسة إسلامية على نمط الأزهر في عهد علي بك الكبير؛ حيث خصّص بعض الفقهاء والمدرسين والمعيدين للتدريس بالجامع، وأَمَّهُ عدد كبير من الطلاب خصص لهم «خبز وجرايات وحساء يصرف يومياً»، وكانت الدراسة دينية لغوية كما كان الحال في عصر العثمانيين،فشملت التفسير والحديث والفقه والتوحيد وغيرها من العلوم الدينية واللغوية.

وكانت ولا زالت شهرة طنطا في تحفيظ القرآن الكريم تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين، وقد قيل: (ما قرآن إلّا أحمدي وما علوم إلّا أزهرية) أحمدي نسبه إلى مسجد أحمد البدوي بطنطا؛ حيث كان أشهر مكان لتحفيظ القرآن وما يزال كذلك.

mudon and thakafat (35).indd 415 5/3/12 4:07 PM

العيد القومي لمدينة طنطا ولمحافظة الغربية

اختارت محافظة الغربية يوم 7 أكتوبـر من عام 1798م عيداً قومياً لها ليعكس قوة إراداتها وأصالة وصمود شـعبها في مقاومة فلول الحملة الفرنسية، وأصبح يوم السابع من أكتوبر من كل عام علامة مضيئة في مسيرة الغربية تحتفل به كل عام.

ففـي ذلك اليوم أصـدر قائد الحملة الفرنسـية (نابليـون بونابرت) أوامره إلـى الجنرال «فوجيير» بجمع الضرائب مـن أهالي مدينة طنطا، وكان مولد السـيد البـدوي قائماً فامتنـع الأهالي عن دفـع الضرائب، وأصبحت الحالة تنذر بالثورة بعد أن تجمهر الأهالي في سـاحة المولد، فاضطر «فوجييـر» إلى إرسـال كتيبة بقيـادة الكولونيـل «لوفيفر» إلى طنطـا، وأمره باعتقال زعمـاء المدينة وأخْذهم رهائـن، وإخضاع القرى المجاورة لمدينة طنطا وأخْذ رهائن منها وإرسالهم إلى القاهرة؛ لضمان هدوء البـلاد، وأمره أيضاً بفرض غرامات عليهـم، وفي الوقت ذاته كان الفرنسـيون يخشـون القداسـة الدينية لمدينة طنطا عند المسلمين لذا كانـوا على حذر معهـا دون غيرها مـن المدن، ومن أجل ذلك استشـار «فوجييـر» الجنرال بونابرت فـي أمر المدينة في رسـالته إليه بتاريخ 6 أكتوبر، وجـاءه رد بونابرت بالجنوح إلى الحكمة وأخـذ الثائرين باللين؛ لأنه يخشى عاقبة إثارة الأهالي في مدينة دينية كطنطا؛ ولكن هذا الرد وصل إلى «فوجييـر» بعد فوات الأوان، فقد وقعت الثـورة، ففي 7 أكتوبر 1798م وصل الكولونيـل «لوفيفر» تجـاه طنطا ورابط بجنـوده أمامها، وأرسل إلى حاكم المدينة سليم الشوربجي يأمره بإرسال أربعة من كبراء المدينة ليكونوا رهائن عنده حتى تسـتقر الأمور؛ ولكن سليم الشوربجى جـاءه بأربعة من أئمة مسـجد السـيد أحمد البـدوي بعد رفـض أكابر المدينة الحضور وإعطاء القائد الفرنسي موثقاً بالمحافظة على السكينة

mudon and thakafat (35).indd 416 5/3/12 4:07 PM

والخضوع للاستعمار، وكان مولد السيد البدوي قائماً في ذلك الوقت، وآلاف من الناس مجتمعين في طنطا من مختلف بلدان القطر المصري.

وعندما هم «لوفيفر» بإنزال الرهائن الأربعة إلى المركب ليبعث بهم إلى القاهرة هرع الأهالي مسلحين بالبنادق والحراب وغيرها، وهم يصيحون صيحات الغضب والثأر للرهائن، ويرفعون بيارق الطرق الصوفية على اختلافهم، فاجتمع الأهالي من كل حدب وصوب واندفعوا على كتيبة الكولونيل لوفير في محاولة لمنع الرهائن، فقامت معركة كبيرة بين الطرفين استمرت عدة ساعات بين أسلحة حديثة ملكها الفرنسيون، وأسلحة تقليدية في يد المصرين، ورغم هذا التفاوت الواضح في قوة السلاح بين الطرفين فإن «لوفيفر» رأى أن جنوده لا يستطيعون الصمود أمام تلك الجموع الغفيرة، فبادر بإنزال الرهائن إلى المراكب والدفع بعدد كبير من جنوده إليها، وترك عددًا من الجنود على الشاطئ لحماية المراكب، وظلت المعركة قائمة حتى جاء الليل ورحلت المراكب، وقدر «لوفيفر» عدد شهداء المسلمين بعدة آلاف؛ بينما كانت خسائر الفرنسيين حوالي ثلاثمائة بين قتيل وجريح. وكانت موقعة طنطا من كبرى المعارك التي شهدتها الحملة الفرنسية في مصر، وهكذا كان يوم 7 أكتوبر 1798م هو الشرارة الأولى التي أيقظت الثورة على المستعمر، الذي جمع فلوله من القرى والأقاليم، فراح الناس يهللون بالنصر، هاتفين «يافرنسيس يا خسيس»، ولقد كان هذا اليوم نموذجاً للخط النضالي في الوطن كله، وتجمعت فيه مقاييس العيد الوطني.

وما زال شعب الغربية يذكر هذه الصفحة المشرقة في كفاحه ضد الاستعمار، تلك المناسبة التي تتفق مع الاحتفال بالمولد الأحمدي الذي يقام كل عام.

mudon and thakafat (35).indd 417 5/3/12 4:07 PM

النديم في سجن طنطا

لمّا فشلت الثورة العرابية 1892م اختفى النديم في ريف مصر تسع سنوات، مطارداً من السلطة المصرية، محكوماً عليه بالنفي المؤبد، مطلوباً رأسه بألف جنيه مكافأة تدفعها الحكومة لمن يرشد عن مكانه. غيَّر النديم أسماءه وأزياءه في هذه السنوات مرات تَجِلّ عن الحصر، حتى دلّ عليه جاسوس من جواسيس السلطة فأرشد عنه، فسيق إلى سجن طنطا ليحقق معه وكيل نيابة من ألمع وأعظم الشخصيات التي عرفتها مصر وهو قاسم أمين. لم يلح عليه قاسم أمين في التحقيق كثيراً، وأمر له بالقهوة والدخان على حسابه، كما أمر بتنظيف الزنزانة. وما كاد التحقيق ينتهي حتى كان أمر الخديوي توفيق قد صدر بنفيه إلى يافا بفلسطين، ليعود بعد شهور قلائل وقد عفا عنه الخديوي عباس خليفة الخديوي توفيق، وليصدر صحيفة (الأستاذ).

صورة وصفية لمدينة طنطا عام 1900م

لم يكن في طنطا عام 1900م شارع مرصوف، وكانت الأوحال تتراكم فيها أسابيع طويلة بعد سقوط الأمطار، أما شوارعها الواسعة فكانت لا تزيد على أصابع اليد،كما كانت مبانيها الفخمة معروفة معدودة، مثل (سراية رباط) ومدرسة (الفرير) التي كانت تعرف بالسبع بنات على ترعة الجعفرية، عدا عدة بيوت أنيقة صغيرة متناثرة على الترعة أيضاً قبيل قنطرة سمنود.

وقد تطورت الإضاءة فيها من مصابيح البترول الضئيلة النور إلى مصابيح البنزين، ثم إلى المصابيح الكهربائية المذبذبة فإلى المصابيح الفلورا.

mudon and thakafat (35).indd 418 5/3/12 4:07 PM

وفي عام (1930م) عني المجلس البلدي بطنطا بتغيير الماء الذي تستقي منه المدينة فصار ماءً عذباً بعد أن كان يخرج من باطن الأرض ويُشرب دون معالجة، وعمت الحنفيات العمومية المجانية أرجاء المدينة الكبيرة بعد أن كانت شوارعها وحاراتها وأزقتها غاصة بالسقائين الذين يجلبون الماء العكر من الترعة الجعفرية، ويتردد في أكثر الطرقات نداؤهم المعروف (يعوض الله) وقد زالت الرطوبات والعفونات من حواريها وشوارعها لرصف معظمها إن لم يكن كلها، ولتوصيل المجاري في غالبيتها. والفضل فيما اختط فيها من شوارع كثيرة وأبنية فاخرة لمحمد محب باشا ومن تلاه من المديرين الذين أخذوا في توسيع المدينة وإصلاح شوارعها وإنشاء المتنزهات والمباني العامة فيها، وفي فترة تولي العزبي باشا مديراً لمديرية الغربية تم تحويل مجرى ترعة الجعفرية وردمها.

الفضل فيما اختط طنطا من شوارع كثيرة وأبنية فاخرة لمحمد محب باشا ومن تلاه من المديرين الذين أخذوا في توسيع المدينة وإصلاحها

أحوال النساء الطنطاويات وملابسهن في العام 1900م

كانت سيدات العائلات والطبقة الراقية في طنطا عندما يخرجن من المنزل يتدثرن فوق الفستان بدثار كبير فضفاض يسمى توباً أو (سبلة) يكاد عرض كميه يعادل طوله، وهو من الحرير القرنفلي أو الوردي أو البنفسجي، ثم يضعن بعد ذلك (البرقع) الأبيض على الوجه وكان عبارة عن قطعة طويلة من الموسلين الأبيض يحجب الوجه كله ماعدا العينين، وتسقط حتى القدمين، ثم يرتدين (الحبرة)، وحبرة السيدة الطنطاوية المتزوجة من الحرير الأسود اللامع، أما الآنسات فكن يرتدين حبرة من الحرير الأبيض أو شالاً،

mudon and thakafat (35).indd 419 5/3/12 4:07 PM

وكانت سيدات الطبقة الوسطي والعامة يلبسن بدلاً من الحبرة (إزاراً) وهو قطعة بيضاء من نسيج القطن على شكل الحبرة ويلبس مثلها تماماً.

حسبة برما

منذ أوائل القرن العشرين واسم «حصة برما» على كل لسان بسبب «حسبة برما» وحصة برما إحدى بلاد مركز طنطا، وتشتهر بتفريخ الدجاج، أما حسبة برما فلها قصة:

فبينما كانت (صالحة حسان) ـ وتشتغل بتوريد البيض من قرية «كفر المنصورة» إلى معمل التفريخ بحصة برما ـ تسير حاملة سلة البيض على رأسها في طريقها إلى المعمل، اعترض طريقها (حامد مصطفى) ممتطياً ظهر حماره، وقد وضع أمامه المحراث (بعرض الطريق) فاصطدمت المرأة به، وسقطت على الأرض كذلك السلة بما حوت، وتحطم البيض، وسارعت صالحة بالنهوض، وأمسكت بتلابيب الفلاح فتجمهر الناس من حولها، وتصادف مرور (حنا أفندي تادرس) ـ صراف برما ـ فتدخل لحل النزاع وتطوع لدفع ثمن البيض، وسأل المرأة عن الثمن، وكانت دهشته بالغة حين قالت: إنها لا تعرف الثمن؛ لأنها لا تعرف عدد البيض، فثار الصراف عليها وسألها في حدة: وكيف أستطيع دفع الثمن؟ فقالت المرأة: إنها إذا وضعت البيض في مجموعات كل منها اثنتان أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست بيضات تزيد على المجموعة بيضة واحدة في كل حالة، ولكنها اعتادت أن تملأ سلتها كل يوم بمجموعات تتكون الواحدة من سبعة، وفي هذه الحالة لا يبقى شيء.

mudon and thakafat (35).indd 420 5/3/12 4:07 PM

وهنا أخرج الصراف ورقة من حقيبته وظل ساعتين يحسب بقلمه حتى استطاع أخيراً أن يصل إلى عدد البيض، وتنفس الصعداء بعد أن انتهى من حسبة برما، ثم أخرج محفظته ودفع لها ثمن 301 من البيض.

ومن يومها وحسبة برما حديث الناس ومثلهم الشائع في المسائل الحسابية العويصة.

المراجع:

1 ـ المعجم الوسيط الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثاني 1988م.

2 ـ يونان لبيب رزق، الطنطاوية، ديوان الحياة المعاصرة، الحلقة 303 أهرام 16 سبتمبر 1999م.

3 ـ جلال العشري، طنطا زهرة وادي النيل ـ مجلة الفيصل السعودية ـ العدد 47. إبريل 1981م.

4 ـ سيد وهبي، السجل الذهبي لطنطا، دون تاريخ.

5 ـ علي مبارك، الخطط التوفيقية الأجزاء 5، 7، 11 ـ 1956م.

6 ـ جمال الدين أبو المجاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ سلسلة تراثنا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1963م.

7 ـ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الخامس، بيروت، دون تاريخ.

8 ـ بطرس البستاني، دائرة المعارف الإسلامية، بيروت 1899 م.

9 ـ الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لجنة التأليف والنشر 1949م.

10 ـ محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد العاشر، الطبعة الثالثة 1971م.

mudon and thakafat (35).indd 421 5/3/12 4:07 PM

11 ـ حسن عبد الوهاب سلسة، كتاب الشعب 75 (بيوت الله، مساجد ومعاهد) 1960م.

12 ـ المساجد العمارة والتاريخ والرسالة، موضوع خاص إعداد مجلة الفيصل العدد الخامس عشر رمضان 1398هـ أغسطس 1978م.

13 ـ المنتخب من أدب العرب، سلسلة الذخائر 69 الهيئة العامة لقصور الثقافة المجلد الثاني.

14 ـ شمس الدين النواجي، حلبة الكميت، تحقيق: محمد إبراهيم أبو الفضل الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978م.

15 ـ جمال الدين الشيال، الشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي ودكتور برون مجلة كلية الآداب القاهرة 1944م.

16 ـ عمر صابر عبد الجليل، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، مكتبة الأسرة 2009م.

17 ـ صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري، الحديث مكتبة الأسرة 2008م.

18 ـ جريدة القاهرة، العدد 447 الثلاثاء 11 نوفمبر 2008م.

19 ـ مجلة دبي الثقافية العدد 44، يناير 2009م.

20 ـ مجلة العربي الكويتية، العدد 583، يونيو 2007م.

21 ـ مصطفى نبيل، مجلة الهلال مارس 1993م.

22 ـ محمود الورداني، بعض ما يمكن قوله أوراق ليست شخصية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 2009م.

23 ـ هيا محمد علي، الغربية محافظة أثرية، مجلة آثار، العدد 14، يناير 2009م.

24 ـ موقع جامعة طنطا الإلكتروني.

mudon and thakafat (35).indd 422 5/3/12 4:07 PM